القيم والأخلاق في اقتصاد السوق
مفهوم أخلاق السوق
دراسة مقارنة بين الاقتصاد الشرعي
والفكر المعاصر حول الأخلاقيات الاقتصادية

(القسم الأول)

د/ عبد الرزاق بلعباس*

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيِّئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومَن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمّدًا عبده ورسوله.

وبعد، فهذه مقدمة الورقة وتحتوي على نقاط ثَلاَثٍ:

أولا: أهمية البحث من الناحية المعرفية: يقسم الاقتصاديون عادة علمهم إلى قسمين: "الاقتصاد الوضعي" (*économie positive*) و"الاقتصاد القيمي" أو"الاقتصاد المعياري" (*économie normative*). ويعنون بالاقتصاد الوضعي أنه "اقتصاد وصفي" (*économie descriptive*) يبحث في "ما هو كائن"، أي يدرس الواقع كما هو لاكتشاف القوانين الاقتصادية. أما الاقتصاد المعياري فيقصد منه دراسة "ما يجب أن يكون". ويحاولون

---

*. باحث في الاقتصاد، تحصل على شهادة مهندس في الإلكترونيك، وشهادة الدراسات المعمّقة في الاقتصاد الرياضي والقياس الاقتصادي، ودكتوراه في التحليل والسياسة الاقتصادية من مدرسة الدراسات العليا في العلوم الاجتماعية (باريس) بأطروحة عنوانها "التنافسية الوطنية حفرية مصطلح وحوارية" (2001). ويمكن الاتصال به عن طريق العنوان الإلكتروني الآتي: *abelabes@gmail.com*

جاهدين اجتناب الخوض في دراسة الأخير بحجة أنه "ليس هناك مكان للاقتصاد في تقرير ما يجب أن يكون، لأن كل ما يقال في هذا المجال يتضمن القيم والأحكام الخلقية الشخصية وهذه بحكم طبيعتها غير موضوعية وغير عملية، إذ هي تعكس شعور الفرد نحو أمر معين وهذا الشعور بدوره يتوقف إلى حد كبير على خلفية الردود الاجتماعية والدينية والثقافية"[1] وفي ظلّ ما سمّي بـ"العولمة"، وهي في الحقيقة "الطريقة العصرية للأمركة"[2]، اتجه اقتصاديون من الثلاثية (أمريكا، اليابان، أوروبا) منذ بداية التسعينات إلى نقد النموذج الاقتصادي المعاصر المتمثل في إيديولوجية التنافسية بإبراز محدوديته وعدم قدرته على الاستمرار. فوجود الشركات الكبرى مسموح في ظلّه بل هو أمر طبيعي عند غير قليل منهم ولكن أن يصل حد ابتلاع النظام نفسه فهذا هو الخطر عينه[3]. كما أن التلاعب المحاسبي للشركات الكبرى وانهيار بعضها ونشر المعلومات الخاطئة والمضلّلة وانفجار المديونية وأزمة الثقة الّتي تمر بها الأسواق المالية، كل هذه المؤشرات تدل من جهة على عجز السوق لتنظيم نفسه بمفرده وبالتالي على انهيار أسطورة "اليد الخفية"[4] وتدل من جهة أخرى على أكثر من أزمة اقتصادية: على أزمة فكر اقتصادي يفتقد إلى نظرة شاملة[5] وبالتالي على "أزمة حضارة"[6]. فالمجتمعات الغربية "تبدو ملغمة بشعور

1.Simpson R., Calmus.T, Economics : Concept Application, Analysis, Haughton Miffin, Boston, 1974, pp7-8

2. André Kaspi, *Les Etats-Unis d'aujourd'hui*, Plon, Paris, 1999, p. 199

3.James F. Moore, *Predators and Prey A New Ecology Competition*, in *Harvard Business Review*, mai-juin 1993, pp. 75-86

4.Soros G., *La crise du capitalisme mondial. L'intégrisme des marchés*, Plon, Paris, 1998.-Eisuke Sakakibara, directeur des affaires internationales au Ministère japonais des finances, -surnommé "*Mr Yen*" sur les marchés financiers, entretien in Le Monde, 24 mai 1997, p. 21

5. Louis Dumont, Essais *sur l'individualisme. Une perspective anthropologique sur l'idéologie moderne*, Seuil, Paris, 1985

6. Joseph Stiglitz, *La grande désillusion*, traduit de l'américain, Fayard, Paris, 2000

الحرمان واختلال الأمن ومعاناة اجتماعية"[1] وشركاتها تبـــدو "بربريـــة" بسبب طرد العمال والمؤامرات والمضايقات والمعاكسات والقلق[2]. ومَـــن تأمّل حال المجتمعات الثلاثية (أمريكا، اليابان، أوروبا) وجد جلّ سكانها يشكو واقع حياته كما قال الشاعر:

كُلُّ مَنْ لاَقَيْتُ يَشْكُو دَهْره لَيْتَ شِعْري هَذهِ الدُّنيا لِمَنْ؟

فأضحى المفكرون يتحدثون عن "أصولية السوق"[3] و"تعصب السوق"[4] و"إيديولوجية الفردية"[5] و"دين الليبرالية"[6] و"إنجيل التنافسية"[7] و"دين الاقتصاد"[8] و"هيمنة الاقتصاد على لمجتمعات"[9]، يقتنعون بأن علم الاقتصاد في صيغته الحالية كعلم مستقل عن سائر العلوم الأخرى وبالخصوص عن علم الأخلاق لا يمكن أن يقود البشرية إلاّ إلى طريق مسدود وأنه أصبح

---

1. Jacques Généraux, *Les vraies lois de l'économie*, Seuil, Paris, 2002 *Kossy Libran, Le prophète du libéralisme*, présenté par Michel Piquemal, Mille et une nuits, Paris, 2005
2. Riccardo Petrella, *L'évangile de la compétitivité*, in *Le Monde Diplomatique*, septembre 1991, p. 32
3. Bernard Maris, *Lettre ouverte aux gourous de l'économie qui nous prennent pour des imbéciles*, Seuil, Paris, 2003, pp. 130-135
4. Michel Beaud, *Le basculement du monde*, La Découverte / Roche, Paris, 2000, pp. 173-175 Seuil, Paris, 2003, pp. 130-135
5. François Rachline, *Aujourd'hui, l'économie est une science qui ne pense pas*, in *Le Monde*, 22 novembre 1994, p. 2.
6. قال الاقتصادي الفرنسي موريس آلي (Maurice Allais)، الحاصل على جائزة نوبل في الاقتصاد، في درسه الذي ألقاه في أكتوبر 1967 بجنيف: "إن تحديد الغايات لا ينتمي إلى علم الاقتصاد، بل لا ينتمي إلى أي علم".
7. Louis Deschamps, *L'investissement éthique. Vers une réconciliation de l'économique et de l'éthique*, in Futurible, octobre 1988, pp. 39-45 Amartya Sen,
8. Robert Heilbroner, William Milbero, *The Crisis of Vision in Modern Economic Thought*, Cambridge University Press, 1995
9. Romain Croës, *Capitalisme fin d'une histoire*, Editions Magrie-Les Nuées Volantes, Paris, 1995-Emmanuel Todd, *L'illusion économique*, Gallimard, Paris, 1999.

علماً لا يفكر[1]. وبهذا تنهار أسطورة "العلمية"[2] فاسحة المجال للتساؤل حول علاقة الاقتصاد بالأخلاق[3] والوسائل بالغايات[4].

وإذا تحدث ماكس فيبر في المجال الاقتصادي عن "الأخلاق البروتستانتية" (1904-1905) وورنر سومبرت عن "الأخلاق اليهودية" (1911)[5] وميشيو موروشيما عن "الأخلاق الكنفوشية" (1987) بالنسبة لليابان وآخرون عن "الأخلاق الكنفوشية" بالنسبة للصين[6]، فمن الأولى أن يبرز الاقتصادي المسلم أخلاق دينه في الحقل الاقتصادي. وهذا لا يعني إخضاع الأخلاق لأصولية السوق أو بعبارة أخرى تخليق الليبرالية كما هو شأن جُل الدراسات حول "الأخلاقيات الاقتصادية"[7]. أما الاقتصاد الشرعي فيعتبر أخلاق السوق جزءاً من الإسلام لا يمكن فصله عن بقية الجوانب الأخرى من عقيدة وعبادة ومعاملات. وهذا لا يعني أنه يعمد إلى

---

1. Jean-Paul Fitoussi, *La politique de l'impuissance*, Arléa, Paris, 2005, p. 41
2. Albert Derieux, Stéphane Jourdain, *L'entreprise barbare*, Albin Michel, Paris,1999
3. Albert Derieux, Stéphane Jourdain, *L'entreprise barbare*, Albin Michel, Paris,1999
4. Emmanuel Wallerstein, *Le capitalisme va mourir de sa réussite*, in Sciences Humaines, n°71, avril 1997-Claude Bebéar, *Il vont tuer le capitalisme*, Plon, Paris, 2003-Olivier Pastré, Michel Vigier, *Le capitalisme déboussolé*, *La Découverte*, Paris, 2003-Guillaume Duval, *Le libéralisme n'a pas d'avenir*, La Découverte/ Alternative économique, Paris, 2003

5. في كتابه الذي صدر بالألمانية: *Die Juden und das Wirtschaftsleben*, 1911. وترجم إلى الفرنسية: *Les Juifs et la vie économique*, Payot, Paris, 1923. ثم إلى الإنجليزية *The Jews and Modern Capitalism*, Free Press, New York, 1953.

6. Jean Mandelbaum, Daniel Haber, *La victoire de la Chine. L'Occident piégé par la mondialisation*, Descartes & Cie, Paris, 2001. Sophie Faure, *Manager à l'école de Conficius*, Les Editions de L'Organisation, Paris, 2003.
7. Amartya Sen, *Ethique et économie*, Presses Universitaires de France, Paris, 1993.- Amartya Sen, *L'économie est-elle une science morale ?* La Découverte, Paris, 1999.-Michael Novak, *Une éthique économique. Les valeurs de l'économie de marché*, Institut de Boètie, 1987.

الأسواق القائمة اليوم فيحطمها ولكنه سيعمد إلى تغيير النظرة إليها ويصلح معاملاتها ويهذبها بأخلاقه السامية وسماته الطيبة ويمنحها قيمتها الحقيقة بلا مبالغة ولا بخس، فيقبل منها ما ليس فيه مصادمة للشرع. فالاقتصاد الشرعي لا يقف عند دراسة ما يفرضه الأقوياء من البشر مهما تعالت حجتهم وإنما يتجاوز ذلك إلى ما يرضي الله تعالى، ثم يحدّد على ضوء أصوله الكلية ومقاصده العامة وأحكامه المفصلة الخطوط العلمية والعملية لتعديل الواقع السائد ليصبح تدريجيًا هو الواقع الذي يرضي الله سبحانه وتعالى. ولا يتحقّق ذلك إلاّ بإصلاح الفرد الذي يعتبره الاقتصاد الشرعي أرقى أنواع الاستثمار.

ثانيا: فرضية البحث

تقوم الورقة على فرضية مؤداها أن التقسيم "اقتصاد/دين" لم يعد ساري المفعول، لأن غير قليل من أساطين الفكر الاقتصادي المعاصر (وعلى رأسهم أمارتيا سان (*Amartya Sen*) الحائز على جائزة نوبل في 1998م) يلحون على ضرورة تخليق النظام الاقتصادي التنافسي السائد اليوم. وهذا يعبّر في حقيقة الأمر عن أزمة الفكر الغربي الذي تأسّس على فصل "الروح" (*esprit*) عن "المادة" (*matière*)، و"القيمة" (*valeur*) عن "الفعل" (*fait*)، و"النظرة" (*vision*) عن "العلم" (*science*)[1].

ثالثا: منهجية البحث

تتبع الورقة منهجاً نقدياً بناء على ضوء أصول (*fondements*) ومقاصد (*finalités*) الاقتصاد الشرعي ودراسة معمّقة ومتأنية للإيديولوجية السائدة:

---

1. راجع رسالتي للدكتوراه، "التنافسية الوطنية حفرية مصطلح وحوارية"، مدرسة الدراسات العليا في العلوم الاجتماعية، باريس2001، ص 11.

"إيديولوجية التنافسية"(*compétitivisme*)[1] التي تحمل منطق الحرب الاقتصادية والاقصاء لصالح الأقوى. والأصول ثلاثة: الأدلة من القرآن، والأدلة من السنة والقواعد والضوابط المأخوذة من الكتاب والسنّة. والمقاصد هي الغايات التي قصدها الشارع من تشريعه للحكم المتعلق بالخلق في الدنيا والآخرة. أما عرض إيديولوجية التنافسية فهو يرتكز على "الطريقة الإدراكية" (*mode cognitif*): "إلى أي شيء تصلح ؟" (*à quoi sert-elle ?*).

المبحث الأول: مفاهيم أولية عن الأخلاق

المطلب الأول: مفهوم الأخلاق في الاقتصاد الشرعي

الخلق هو كل سلوك حسن أقرّه الإسلام أو جاء به حتّى يصير في الإنسان كالخِلْقَة (أي كالفطرة أو الطبع).

المطلب الثاني: مفهوم الأخلاقيات (*éthique*) في الفكر المعاصر حول الأخلاقيات الاقتصادية

الخلق (*éthique*) هو قيم (*valeurs*) السلوك الإنساني (*conduite humaine*).

المطلب الثالث: الفرق بين مفهوم الأخلاق في الاقتصاد الشرعي وفي الفكر المعاصر حول الأخلاقيات الاقتصادية.

يتميّز مفهوم الاقتصاد الشرعي للأخلاق عن الفكر المعاصر للأخلاقيات الاقتصادية بغير قليل من الخصائص من أهمها:

- أن كلمة "الأخلاق" تستلزم "قيم مطلقة" (*valeurs absolues*) أي "قيم عالمية" (*valeurs universelles*) مستمدة من القرآن والسنّة، في حين تستلزم

---

1. راجع رسالتي للدكتوراه، "التنافسية الوطنية حفرية مصطلح وحوارية"، مدرسة الدراسات العليا في العلوم الاجتماعية، باريس، 2001م. وتجدر الملاحظة أن أول من أطلق تسمية "*compétitivisme*" على إيديولوجية التنافسية هو صاحب هذه الورقة.

كلمة "أخلاقيات" (*éthique*) قيم متكيفة" (*valeurs adaptables*) أي "قيم نسبية" (*valeurs relatives*) تخضع لظروف الزمان والمكان.

- أن وراء مفهوم "الأخلاق" هناك سؤال: "ماذا يجب أن أعمل لأرضي الله تعالى؟"، هناك أمر (*commandement*) وإلزام فاصل (*obligation catégorique*). في حين هناك وراء كلمة "*éthique*" سؤال: "كيف أعيش؟" (لأكون "سعيدًا" حسب الفلسفة اليونانية؛ أو لأكون "الرجل الأعلى" حسب فلسفة نيتشه؛ أو لأكون "الأجدر للبقاء" حسب فلسفة سبنسر، أو لأكون "تنافسيًا" حسب فلسفة التنافسية...إلخ)؛ هناك توجيه (*recommandation*) وإلزام افتراضي (*obligation hypothétique*) يختلف حسب فلسفة الحياة المتبعة.

- أن حسن الخلق يكون في الإسلام فطريًا (بالطبع) وقد يكون مكتسبًا (بالتطبع) ولذلك قال النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم لأشجع عبد القيس: إنّ فيك خلتين يحبهما الله: الحلم والأناة، قال: يا رسول الله، أنا أتخلق بهما أم الله جبلني عليهما؟ قال: بل الله جبلك عليهما. فقال: الحمد لله جبلني على خلتين يحبهما الله ورسوله[1]. وحسن الخلق الفطري أكمل لأنه لا يزول عن الإنسان، في حين أن حسن الخلق المكتسب قد يفوته في مواطن كثيرة لأنه لا يحتاج إلى ممارسة ومجاهدة وتذكر ولذلك قال رجل للنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم: (أوصني؟ قال: "لا تغضب! فردّد مرارًا؛ قال: لا تغضب)![2]. أما الفكر المعاصر حول الأخلاقيات الاقتصادية فهو يرى أن السلوك الخلقي يكون بالاكتساب. وقد طرحت في الغرب عدة نظريات لتفسير تكوين

---

1. أبو داود (5225).
2. البخاري (5765).

السلوك الخلقي من أهمها: نظرية التكوين الحياتي للإنسان ونظرية التأثير الاجتماعي ونظرية التفهم العقلي لدى الإنسان[1].

- أن أخلاق السوق جزء من الإسلام، فلا يمكن فصلها عن بقية جوانب الحياة الإسلامية الأخرى من عقيدة وعبادة ومعاملات. أما أخلاقيات السوق في الفكر المعاصر حول الأخلاقيات الاقتصادية فهي منفصلة عن جوانب الحياة الأخرى.

- أن دائرة الأخلاق تشمل في الإسلام جميع أفعال الإنسان الّتي تكون في معاملة الخالق وتكون أيضًا في معاملة الخلق. أما دائرة الأخلاقيات في الفكر المعاصر حول الأخلاقيات الاقتصادية فلا تشمل إلاّ أفعال الإنسان كمنتج أو مستهلك.

- أن مفهوم أخلاق السوق في الاقتصاد الشرعي يشمل سائر الأخلاق التي تقوم عليها حياة المسلم. أما الفكر المعاصر حول الأخلاقيات الاقتصادية فيقتصر على بعض القيم.

المبحث الثاني: مفاهيم أولية عن السوق والأخلاق

يبين هذا المبحث مفهوم السوق ويجري مقارنة بين مفهوم "أخلاق السوق" في الاقتصاد الشرعي وفي الفكر المعاصر حول الأخلاقيات الاقتصادية؛ ولهذا جاء في مطلبين هما:

المطلب الأول: مفهوم السوق

- **السوق لغويًا**: هو موضع المبيعات الذي يُتعامل فيه، قال تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ**﴾[2].

---

1. راجع موسوعة "نظرة النعيم في مكارم أخلاق الرّسول الكريم صلّى الله عليه وسلّم" (1/121-123).
2. سورة الفرقان، الآية 20.

- **واصطلاحًا** : هو اسم لكل مكان وقع فيه التبايع بين من يتعاطى البيع أو الشراء.

وهو في المعنى الاصطلاحي أعم منه في المعنى اللغوي، إذ إنه في المعنى اللغوي: خاص بالموضع أو المكان المعين المعروف الذي يجتمع فيه الناس بقصد البيع والشراء والمبادلات. أما في المعنى الاصطلاحي فهو أعم، إذ يشمل كل موضع أو مكان وقع فيه البيع والشراء وإن لم يكن معروفًا عند الناس أنه سوق. وفي هذا لا يختلف معناه بين الاقتصاد الشرعي والفكر المعاصر حول الأخلاقيات الاقتصادية وإنّما يأتي الاختلاف في الأصول والمقاصد والأحكام.

المطلب الثاني: مفهوم "أخلاق السوق" بين الاقتصاد الشرعي والفكر المعاصر حول الأخلاقيات الاقتصادية.

يقوم السوق في الاقتصاد الشرعي "على المتاجرة الشرعية باستثمار الأموال فيما أحلّه الله وفق قواعد وضوابط المعاملات الشرعية المبنية على أصل الإباحة والحل في المعاملات واجتناب كل ما حرّمه الله منها"[1]. وعلى هذا الأساس فإن مفهوم "أخلاق السوق" نابع من أصول ومقاصد وأحكام الاقتصاد الشرعي ويشمل بذلك سائر الأخلاق التي تقوم عليها حياة المسلم.

أما في الفكر المعاصر حول الأخلاقيات الاقتصادية فإن أخلاقيات السوق وضعت لتخفيف شيء من مساوئ إيديولوجية التنافسية؛ فهي ليست أساسًا في النظام ولا أمرًا جوهريًا، بل هي قيم طارئة ألحقت به، لذلك فإن مفهوم "أخلاقيات السوق" في الفكر المعاصر حول الأخلاقيات الاقتصادية يقتصر على جملة من القيم (*valeurs*) يمكن تلخيصها فيما يلي:

---

1. فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء (13/7).

- "الأشكال" (*formes*) الأخلاقية: كالفضيلة (*vertu*) والمسؤولية (*responsabilité*) والمناقشة (*discussion*) والعدالة (*justice*).
- و"المفاهيم" (*concepts*) الأخلاقية: كالحياة الحسنة (*la vie bonne*) والصحيح (*le juste*).
- و"الممارسات" (*pratiques*) الأخلاقية: كالأفضل أو الأحسن (*optimum*) والمنافسة (*concurrence*) والتقدير (*évaluation*) والتعويض (*compensation*)[1].

وعلى هذا الأساس فإن الفكر المعاصر حول الأخلاقيات الاقتصادية يقترب من رأي مؤرخ الاقتصاد الفرنسي "فرناند برودل" حين يميز بين النظام الرأسمالي (*capitalisme*) الذي يرتكز على المضاربة (*spéculation*) ونظام "اقتصاد السوق" (*économie de marché*) الذي يرتكز على "الشفافية" (*transparence*)[2].

وكذلك يرى الفكر المعاصر حول الأخلاقيات الاقتصادية أن إيديولوجية التنافسية (*compétitivisme*) حوّلت نظرة الإنسان إلى السوق من علاقة بين الناس للحاجة المشتركة إلى حرب اقتصادية تخضع إلى "إرادة القوة" (*volonté de puissance*) التي دعا إليها نيتشه (Nietsche)[3] لأن "الإنسان، كما قال هوبز (Hobbes)، هو أيضًا ذئب بالنسبة لإنسان آخر" (*l'homme est aussi un loup pour un autre homme*)[4]

---

1. Jérôme Ballet, François-Régis Mathieu, *Ethique économique*, Editions Ellipses, Paris, 2003.
2. Fernand Braudel, *La dynamique du capitalisme*, Arthaud, Paris, 1985, p.118.
3. راجع الجذور الفلسفية والإيديولوجية لمصطلح التنافسية في أطروحتي للدكتوراه (ص60-63).
4. Hobbes, *Le citoyen*, GF, Paris, 1982, p. 83. قد رد عليه بوريس سيرولنيك في مقاله: Boris Cyrulnik, *L'homme (malheureusement) n'est pas un loup pour l'homme*, in Sciences Humaines, Hors-série n°5, mai-juin 1994, pp. 11-12.

المبحث الثالث: أخلاق السوق في الاقتصاد الشرعي

إن السوق ليس حكرًا لأحد، فهو قديم قِدَم المجتمعات الانسانية. وكان للمجتمع العربي كغيره من المجتمعات في الجاهلية أسواق يتبايعون فيها. وقد اشتهر العرب بالتجارة وكانت لهم قوافل تجارية تنقل البضائع من الجزيرة إلى بلاد الفرس والروم، إضافة إلى رحلاتهم المعروفة إلى بلاد اليمن في الشتاء وإلى بلاد الشام في الصيف كما قال تعالى: ﴿**لإِيلاَفِ قُرَيْشٍ إِيلاَفِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ**﴾[1].

ومَنّ الله على أهل مكّة بأن جعل بلدهم سوقًا تجاريًا تُجبى إليه ثمرات كل شيء، قال تعالى: ﴿**أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا**﴾[2]. وفي مرحلة الصراع بين فارس والروم اعتمدت القوتان على العرب في إيصال بضائع المشرق. وكان النّبيّ صلى الله عليه وسلّم يرتاد الأسواق كسبًا للرزق وطلبًا للمعاش. ولّما هاجر إلى المدينة حدّد مكانًا معيّنًا للسوق، وتعهده بالاشراف والمراقبة ووضع له ضوابطَ وسن له آدابًا وطهّره من كثير من بيوع الجاهلية ومنع بيع المحرمات فيه كما عني بحريته وإتاحة الفرص المتكافئة فيه للبيع والشراء بين الجميع على السواء، ومقاومة كل سلطان أو مظهر يراد به التأثير أو الاستئثار بأيّ امتياز فيه ومنع أي احتكار أو استغلال قد يقع فيه[3]. وبذلك أزال الإسلام الأوهام المستقرة في نفوس العرب حول الأسواق والأعمال التجارية حيث كانوا يظنون أنّها لا تتناسب مع هيبة الأنبياء والقادة والرؤساء فنزلت الآيات القرآنية لتدفع هذا الوهم ولتبيّن بكل وضوح أن جميع الرسل كانوا يدخلون الأسواق، فقال تعالى: ﴿**وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلاَ أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ**

---

1. سورة قريش، الآيات 1-4.
2. سورة القصص، الآية 57.
3. أحمد بن يوسف الدريويش، "أحكام السوق في الإسلام وأثرها في الإقتصاد الإسلامي"، دار عالم الكتب للنشر والتوزيع، الرياض، 1409هـ، ص30-39.

﴿فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا﴾[1]، فردّ الله عليهم بقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾[2]. فصحّح النظرة إلى السوق بأنها لا تتنافى مع الهيبة ولا تتعارض مع الرسالة والنبوة والشرف والرفعة والعزة والمكانة"[3]. "وقد أثر توحيد الإسلام لشبه جزيرة العرب وإحلاله الأمان فيها على نشاط الحركة التجارية"[4] واهتم الفقهاء بالأسواق وأحكامها وأخلاقها، فألّفوا عددًا من الكتب التي تعنى بشؤونها[5]. وكان الناس "لا يتعاطون البيع والشراء حتّى يتعلّموا أحكامه وآدابه وحلاله وحرامه"[6]. وهذا يدل على ما للسوق في الإسلام من منزلة عالية ومكانة رفيعة حتّى بلغت في ظلّه أعلى درجات الدقة والتنظيم كما جاء في كتب التاريخ والرحلات. وقد تحدث ابن بطوطة عن الأسواق التي رآها أثناء رحلته ووصف بعضها وأعجب ببعضها الآخر[7].

يتبع

---

1. سورة الفرقان، الآية 7.
2. سورة الفرقان، الآية 20.
3. علي القره داغي، "بحوث في الاقتصاد الإسلامي" (ص 106).
4. أكرم ضياء العمري، "الحياة الاقتصادية والاجتماعية في عصر النبوة"، دار اشبيليا، الرياض، 1417هـ، ص 27.
5. مثل "التبصر بالتجارة" للجاحظ (ت:255هـ)، و"أحكام السوق" ليحي بن عمر الكناني الأندلسي (213–289هـ)، و"الإشارة إلى محاسن التجارة" لأبي الفضل جعفر الدمشقي (ت 327هـ)، و"مسائل السماسرة" لأبي عباس عبد الله الإبياني (ت:352هـ)، و"الرتبة في طلب الحسبة" و"الأحكام السلطانية" لأبي الحسن الماوردي (ت:450هـ)، و"الأحكام السلطانية" لأبي يعلى الفراء (ت 458هـ)، و"نهاية الرتبة في طلب الحسبة" للشيرازي (ت:589هـ)، "وتنبيه الحكام على مآخذ الأحكام" لمحمد بن عيسى ابن المناصف (ت:620هـ)، و"الرتبة في طلب الحسبة" لابن الرفعة أحمد الأنصاري (ت 710هـ)، و"الحسبة" لابن تيمية (728هـ)، و"معالم القربة في أحكام الحسبة" لابن الأخوة القرشي (ت:729هـ)، و"نصاب الاحتساب" لعمر بن محمد السنامي (ت:734هـ)، و"الطرق الحكمية في السياسة الشرعية" لابن القيم (ت:751هـ)، و"تخريج الدلالات السمعية على ما كان في عهد النبي رسول الله من الحرف والصنائع والعمالات الشرعية" للخزاعي التلمساني (ت:789هـ)، و"تحفة الناظر وغنية الذاكر في حفظ الشعائر وتغيير المناكر" لأبي محمد بن أحمد العقباني التلمساني (ت:871هـ)، و"الدوحة المشتبكة في ضوابط السكة" لأبي الحسن علي بن يوسف الحكيم (عاش في القرن الثامن الهجري)، و"نهاية الرتبة في طلب الحسبة" لابن بسام المحتسب (عاش في القرن التاسع الهجري)، و"الحسبة" لابن المبرد الدمشقي (ت 909هـ)، و"كتاب التيسير في أحكام التسعير" للمحيلدي (ت:1094هـ)، و"كشف القناع عن تضمين الصناع" لأبي علي الحسن بن رحال المعداني (ت:1140هـ)، وغيرهم.
6. رفيق يونس المصري، "أصول الاقتصاد الإسلامي" (ص128).
7. أحمد مطلوب "الملامح الاقتصادية في رحلة ابن بطوطة"، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1999م، ص76–80.